المقتطف

الجزء السابع من المجلد الثامن والعشرين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣ — الموافق ٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢١

الملك وحقوق الملوك

وحادثة السرب

لم نرَ للكلام على حادثة السرب تمهيدًا افضل من فصل كتبهُ حضرة المحامي الفاضل داود بك عمون ونشرناهُ في المقطم على اثر هذه الحادثة قال فيهِ :

ما برح الخلاف قائمًا منذ القدم بين الملوك والشعوب على طبيعة الملك وحقوق الملوك يدعي الاولون ان الملك حق الهي وانهُ وديعة في ايديهم من الخالق لا يحاسبون عنهُ الاَّ امامهُ وليس للبشر عليهم مراقبة ولا محاسبة اساءوا في استعمال سلطتهم ام احسنوا وان طاعتهم امر واجب محتم والانتقاض عليهم اثم فظيع محرم

والشعوب تعتقد ان الملك انابة من الجمهور لشخص معين بشروط معلومة يجوز للجمهور مناقشتهُ الحساب عن كيفية تأديتهِ لها وعزلهُ منها وعقابهُ اذا لم يحسن القيام بها او اساء استعمالها

ولم تنفرد ملوك الغرب بهذه الدعوى بل ادعاها ايضًا ملوك الشرق وكانت منتشرة عند العرب في الجاهلية وقد عرضت هذه العقدة لكليب المشهور فلم يتعرَّض لحل الخلاف حلاً قانونيًا بل ذكر المذهبين وقتل الملك وتركنا نتشوق الى معرفة رأيهِ فقال

ان يكن قتلنا الملوك حرامًا او حلالاً فقد قتلنا لبيدًا

ثم جاء الاسلام بالخلافة الانتخابية والبيعة الجمهورية فقضى على مذهب القائلين بقولهم الى ان انتهى عهد الخلفاء الراشدين

اما اليوم وقد ترقت العقول وارتقت النفوس فلم يبقَ لهذا المذهب انصار الاَّ القوة والرهبة في بعض الممالك الشرقية او المتصلة بالشرق كالصين وايران وروسيا وحسبك دليلاً على ذلك

ان اعظم الدول مدنية وحضارة فرنسا وانكلترا قد حاكمت كلٌّ منهما احد ملوكها ونفذتا عليهما حكم الاعدام ولم يغنها حقها المزعوم فتيلاً . وقد اضطرَّ الملوك بعد الثورة الفرنسوية مرضاةً لشعوبهم ان يتقيدوا بقوانين ونظامات تعرف بالدستور او القانون الاساسي تخول للشعب بواسطة نوابهِ حق التشريع وادارة الاحكام بمفردهِ او بالاشتراك مع الملك ويتعهد كل من الملك والشعب باحترام ذلك الدستور ويقسم الملك بشخصهِ والشعب بلسان نوابهِ يميناً مغلظة على ذلك . وممكنة السرب من الممالك ذوات الدستور الاَّ ان ملكها الشاب لم يزل على ما يظهر من رأي القائلين بالمذهب الاول وهذا من الغرابة بمكان فانهُ اذا جاز لسليل البوربون ان يعتبر شخصهُ فوق عامة البشر وحقهُ الهيًّا لتقادم عهد بيتهِ بالملك الرفيع والشرف الاثيل فما رأيك في هذا الاعتقاد عند سليل راعي الخنازير

فالملك اسكندر اوبرينوفتش لم ينظر الى مصلحة شعبهِ في استعمال حقوقهِ الشخصية كاقترانهِ بامرأة عاقر من بيت وضيع بدلاً من ان يتزوج فتاة من بنات الملوك فيكتسب لبلادهِ حليفاً ينفعها عند الحاجة ووريثاً يقيها اخطار الاضطراب والحرب الاهلية عند انتخاب خلف لهُ فتغيرت بذلك قلوب رعيتهِ عليهِ ولم يقف عند هذا الحد بل انهُ غدر بعهدهِ لامتهِ وحنث بيمينهِ لها وتعدى على حقوقها بايقافهِ الدستور في شهر ابريل الماضي ريثما قضي اوطارهُ الاستبدادية ثم اعادهُ كأن الدستور ملكهُ يعطيهِ اذا رضي ويستردهُ اذا غضب

فيتضح مما تقدم انهُ رحمهُ الله استوجب المؤاخذة واستحق المحاكمة

بقي اذاً ان نبحث في كيفية محاكمتهِ وايصال القصاص اليهِ وهنا نسلِّم بأنهُ كان يجب محاكمتهُ محاكمة قانونية بكل مظاهرها وان الذين قتلوهُ لم تكن لهم صفة لمد يد الاذى اليهِ وان الانسانية كانت تقضي بعزلهِ او نفيهِ ولكن هذا الامر سهل نظريًّا اما في الواقع فهو مستحيل او في حكم المستحيل . اما محاكمتهُ بالطرق المعتادة فبالبداهة غير ممكنة فاي موظف يرفع الدعوى عليهِ واي قاضٍ يحاكمهُ والموظفون والقضاة في يدهِ يوليهم ويعزلهم متى شاء . واذا فرضنا وجود قضاة لمحاكمتهِ فهل يرضى بان يساق الى المحاكمة صاغرًا ولهُ الحرس والانصار والاعوان فما هي الاَّ الحرب الاهلية وما تنتجهُ من تعطيل اعمال وقتل رجال وتيتيم اطفال

واما نفيهُ او سجنهُ فلا يعودان بفائدة لان الملك يبقى ما عاش سبب خوف وفتنة واقلاق لراحة بلادهِ لا تهدأ لها حال ولا يطمئن لها بال فضلاً عن تداخل الدول في امورهِ واعادتهِ بالقوة الى ملكهِ فلذلك رأى الثائرون ان اسهل الطرق للتخلص من استبدادهِ اعدامهُ فاعدموهُ مختارين بذلك اخف الشرين . والحق يقال انهُ لم يكن لهم سبيل آخر يسلكونهُ ليخرجوا من

ذلك المأذق الاَّ رضوخهم للصغار واقامتهم على الذل. نعم اننا لا نبرئهم لقتل نفس من غير محاكمة قانونية مهما كانت الاحوال ولكننا نجد لهم ما يخفف جرمهم بمخالفة الملك نفسهِ للقوانين التي كان قد اقسم انهُ يحترمها فلسان حالهم ينشدهُ

فلا تجزعن من خطة انت سرتها واول راض خطة من يسيرها

والذي نراهُ انهُ لا بدَّ من محاكمة الذين قتلوهُ وان اول عمل للملك الجديد سيكون اجراء تلك المحاكمة ولكن سيجدون من سوء تصرف القتيل وبغض الشعب لهُ ما يشفع في ذنبهم فيمحوهُ او يكاد

وفي هذا الحادث عبرة للحكام تذكرهم انهم اذا كانوا قد أُعطوا قوةً وجاهًا ومالاً واجلالاً يستمدونها من الهيئة المحكومة فما ذلك الاَّ مقابل حسن خدمتهم لها وجزاء سهرهم عليها لا لتتمكنوا من قهرها بقوتها واذلالها بعدتها وقتلها بسلاحها. ولله در شوقي حيث قال

ان ملكت الرقاب فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأَ سر فكيف الخلائق العقلاء انتهى

هذا ولما كتب الكاتب ذلك لم يكن قد اطَّلع على التفاصيل التي وردت بعدئذٍ عن محاولة هؤلاء القتلة اغتيال ملكهم وزوجتهِ بالسم وعن التمثيل بهما على صورة تقشعرُّ منها الابدان وتدلُّ على ان الطبيعة الوحشيَّة تغلَّبت عليهم فلم يعد غرضهم ابعاد الملك عن سرير الملك ولو بقتلهِ بل الانتقام منهُ ومن زوجتهِ باية صورة كانت والمحرِّك الاول لهم ولغيرهم من المتواطئين معهم على هذه المكيدة ليس الاحتفاظ بدستور البلاد لكي تزيد سعادتها ويمنع عنها الحيف بل انتزاع مقاليد الاحكام من اسرة مالكة وتسليمها الى اسرة اخرى ولا مزية لاسرة على اسرة كأنهم مأجورون لهذا المنكر فارتكبوا فظيعة من اكبر الفظائع قتلوا ملكًا وزوجتهُ واخويها واناسًا آخرين حتى لا يبقى امامهم احد يطالبهم بما فعلوا وحاولوا تقويض اعظم ركن من اركان العمران قضاء لاغراض ذاتية

اما بلادهم فكانت سائرة في سبيل الارتقاء سيرًا حثيثًا وللعائلة التي قرضوها اغتيالاً فضل كبير عليها وايضاحًا لذلك نورد الفذلكة التالية من تاريخها

السرب قطعة من شبه جزيرة البلقان يحدها من الشرق رومانيا والبلغار ومن الغرب بلاد البوسنه ومن الشمال بلاد المجر ومن الجنوب البانيا. وقد هاجر اهاليها اليها من بلاد المجر سنة ٦٣٨ للميلاد واعتنقوا الديانة المسيحيَّة وبقوا اربع مئة سنة تحت سلطة امرائهم. وحاولت الدولة البيزنطيَّة الاستيلاء عليهم فلم يتم لها ذلك. وقوي شأنهم في عهد اميرهم اسطفان دوشان (١٣٣٦ —

١٣٥٦) فانهُ استولى على بلغاريا ومكدونيا والبانيا واكثر بلاد البلقان وطمع في انشاء مملكة منيعة تقاوم مملكة الترك لكنهُ توفي قبلما استتب لهُ ذلك وخلفهُ ابنهُ وكان ضعيف الرأي فانقسمت بلادهُ وتضعضعت احوالها فتغلَّب الاتراك عليها سنة ١٣٨٩ فصارت ايالة من ايالات الدولة العثمانية لكن اهاليها بقوا يمنُّون انفسهم بالاستقلال وحاولوا ذلك مراراً ولاسيما في عهد اسكندر بك الالباني في اواسط القرن الخامس عشر

ومرَّت عليهم ثلاثة قرون بعد ذلك والانكشارية يذيقونهم الذل الوانًا حتى انقرضت عيال كثيرة منهم. وسبي منهم في وقت واحد مئتا الف نفس بيعوا عبيدًا وكان فتيانهم يؤخذون منهم كل سبع سنوات ويربون في الاستانة لينظموا في سلك الانكشارية

وضمت بلاد السرب الى مملكة النمسا سنة ١٧١٨ ثم ردت الى الدولة العثمانية سنة ١٧٣٩ واخيرًا عيل صبر السربيين فنهضوا نهضةً واحدة سنة ١٨٠٤ بقيادة رجل باسل اسمهُ قره جورج وهو من مقتني الخنازير فطرد الانكشارية من البلاد واستولى على بلغراد وغيرها من الحصون . ولما أُمضيت معاهدة بخارست بين الدولة العلية والروس جاء فيها ان السرب تستقل استقلالاً اداريًا وتقيم حامية عثمانية في كل حصونها . لكن الجنود العثمانية عادت فدوخت البلاد كلها فهرب قره جورج الى بلاد النمسا وثار السربيون ثانية سنة ١٨١٥ واختاروا لهم زعيمًا اسمهُ ميلوش اوبرنوفتش وهو من الرعاة ايضًا فتغلب على الجنود العثمانية حتى لم يبقَ منها في البلاد الاَّ حامية الحصون . وظل ميلوش هذا زعيمًا لاهالي السرب في طلب الاستقلال وقتل مناظرهُ قره جورج ونودي بهِ حاكمًا على البلاد واعترفت بهِ الدولة العلية اميرًا عليها في معاهدة بخارست وحصرت الامارة في نسلهِ لكنهُ كان مستبدًّا فاضطرهُ شعبهُ الى التنازل لابنهِ ميلان سنة ١٨٣٩ وتوفي ميلان هذا تلك السنة فخلفهُ اخوهُ ميخائيل وتقوى حزب الاسكندر ابن قره جورج فطرد ميخائيل واقامهُ اميرًا على السرب واعتمد ميخائيل على الباب العالي وحكومة النمسا بدلاً من الاعتماد على روسيا وكان عاجزًا عن ادارة الاحكام فكثر مبغضوهُ واضطروهُ الى التنازل سنة ١٨٥٩ واعادوا ميلوش الاول من منفاهُ ونصبوهُ اميرًا عليهم وتوفي بعد سنتين فخلفهُ ابنهُ ميخائيل واخذت البلاد تفلح في ايامهِ فخمدت البغضاء من بين احزابها وساد النظام والقانون وبثت في الناس حياة جديدة فانتظمت الجندية وسارت البلاد في مراقي الفلاح وخرجت آخر حماية تركية منها ١٨٦٧. وقُتل الامير ميخائيل في السنة الثانية قتلهُ أُناس من حزب قره جورج فخلفهُ ميلان الرابع وفي ايامهِ نشبت الحرب بين الترك والروس ونالت السرب استقلالها التام واضيفت اليها ثلاثة اقضية ونودي بالامير ميلان ملكًا عليها في السادس من

شهر مارس سنة ١٨٨٢ ثم تنازل عن الملك لابنهِ اسكندر سنة ١٨٨٩ وتوفي في ١١ فبراير سنة ١٩٠١ اما ابنهُ فكان عمرهُ ١٣ سنة لما تنازل لهُ ابوهُ فعين لهُ الاوصياء الى ان بلغ سن الرشد لكنهُ قبض على ازمة الملك في ١٣ ابريل سنة ١٨٩٣ وعمرهُ ١٧ سنة واقترن بالسيدة دراجا ماشين في ٥ اغسطس سنة ١٩٠٠ وهي اكبر منهُ بتسع سنوات وكانت من وصائف امهِ

وحكومة السرب دستورية وكان لها دستور اقرَّت عليهِ الجمعية العمومية في ٢ يناير سنة ١٨٨٩ فالغاهُ الملك اسكندر سنة ١٨٩٤ وعاد الى دستورها القديم الموضوع سنة ١٨٦٩ ثم وضع لها دستورًا جديدًا في ابريل سنة ١٩٠١ حصر فيهِ وراثة الملك بنسلهِ من الذكور والاناث . والقوة التنفيذية محصورة في الملك يساعدهُ مجلس النظار والقوة التشريعية في الملك بالاتحاد مع الجمعية العمومية ومجلس الشيوخ

ومساحة بلاد السرب ١٨٦٣٠ ميلاً مربعاً وكان عدد سكانها في آخر سنة ١٩٠١ مليونين و ٥٣٦ الفاً وهي زراعية كثيرة الحراج والمراعي وفيها كثير من القطعان والبساتين وكان عدد سكانها مليوناً و٩٠٠ الف نفس سنة ١٨٨٤ فزادوا ٣٠ في المئة في اقل من عشرين سنة وعاصمة بلادهم بلغراد فيها نحو سبعين الف نفس والاهالي مسيحيون على مذهب الكنيسة الارثوذكسية وبينهم نحو عشرة آلاف من الكاثوليك ونحو عشرين الفاً من مذاهب اخرى. وعندهم مدرسة جامعة فيها قسم للفلسفة وقسم للحقوق وقسم للهندسة عدد تلامذتها ٤٦٣ واساتذتها ٦٢ وست عشرة مدرسة عالية فيها نحو ٦٠٠٠ تلميذ منها مدرسة للبنات فيها نحو ٩٠٠ تلميذة ومدارسهم الابتدائية كثيرة فيها اكثر من مئة الف تلميذ. والتعليم الابتدائي اجباري مجاني. وفيها عدا ذلك مدرسة حربية ومدرسة تجارية ومدرسة زراعية ومدرسة لزرع الكروم خاصة ومدرسة لعلم المساحة هذا عدا المدارس الخاصة وملاجىء الايتام وكان الذين يستطيعون القراءة والكتابة اربعة في المئة فقط من السكان سنة ١٨٧٤ وهم الآن اربعة اضعاف ذلك وايراد الحكومة آخذ في الازدياد المستمر فقد كان ٦٣ مليون فرنك (دينار) سنة ١٨٩٨ فبلغ ٧٨ مليون فرنك سنة ١٩٠٠ وصادراتها وارداتها جارية هذا المجرى ايضاً واكثر صادراتها من المواشي والحاصلات الزراعية والجلود والخمور . وكل مقابلة بين حاضرها وماضيها تدل على ارتقاد مستمر فيها

والسربيون اقوياء الابدان ميالون الى الحرب طبعاً يحبون بلادهم ويتغنون بمدحها ويميلون الى الرقص والطرب . شجعان مضيافون كبار الهمم لكنهم حادو الطبع سريعو الغضب يميلون الى الافراط وهذا يغير اقدامهم على ما ارتكبوهُ اخيرًا من المنكر ثم ابداءهم دلائل البهجة والسرور